المجلد : 12/ العدد : 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

التصوف الإسلامي ببلاد الأندلس: واقعه وأعلامه.
عصر بني الأحمر أنموذجا
Islamic Sufism in Andalusia:
Reality and poles - The era of bani al-ahmar as a model

د . عبد القادر بوحسون*

تاريخ الإرسال: 2020/07/22	تاريخ القبول: 24 /07/ 2020	تاريخ النشر: 01/ 08 / 2020

ملخص:

كان للتصوف بالأندلس دور كبير وفعال في مختلف الأصعدة سواء في التعليم أو الفتوى أو الإصلاح بين الناس بالإضافة إلى الدور السياسي، لا سيما خلال عهد مملكة غرناطة (بنو الأحمر) كونها آخر معقل للمسلمين بالأندلس وشهدت صراعا مريرا بين المسلمين والمسيحين، وهذا ما زاد من إقبال الناس على التصوف باعتباره ملاذا للروح وتعزية للنفس عما فقده المسلمون من مدن وقلاع وحصون. ومن خلال هذا المقال سنحاول تسليط الضوء على واقع التصوف بمملكة غرناطة وأبرز أعلامه.

الكلمات المفتاحية: التصوف، مملكة غرناطة، العلماء، الحركة الفكرية. المجتمع الغرناطي

Summary :

The Islamic sufism in Andalusia had a great role in various fields wether in fatwa or education or reform among People, in addition to the political role. During the reign of granada "banu alahmar" Being the last stronghold of muslims in Andalusia it witnessed a bitter struggle between Muslims and Christians, this has increased people's appetite for sufism as a haven for the soul and self comfort. What Muslims lost from cities, castles and fortresses, and through this articale we will tray study the reality of sufism in the reign of granada and most prominent poles of sufism.

Keywords : Sufism, reing Granada, scientists, the thought movement, Granada society .

* أستاذ محاضر "أ"، قسم العلوم الإنسانية، جامعة الدكتور مولاي الطاهر – سعيدة.

المجلد : 12/ العدد : 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

مقدمة:

عاشت الأندلس عبر تاريخها الإسلامي صراعا طويلا ومريرا مع الممالك النصرانية في شبه الجزيرة الآيبيرية، واشتد هذا الصراع في عهد دولة بني الأحمر (مملكة غرناطة) كونها آخر معاقل المسلمين بالأندلس بعد سقوط جل المدن بأيدي الأسبان، حيث أصبحت غرناطة والمدن والقرى المجاورة لها مقصدا للمسلمين النازحين، وتمكنت رغم الظروف الصعبة من الصمود ولو لفترة في وجه الإسبان إلى أن سقطت سنة 897هـ/1492.

وعلى الرغم من تدهور الأوضاع السياسية بهذه الدولة إلا أن الحركة العلمية والثقافية بصفة عامة عرفت ازدهارا كبيرا، حيث أقبل شعبها على مختلف العلوم والفنون ومن بينها علم التصوف.

فما هو واقع التصوف بالأندلس خلال هذه الفترة؟ ومن هم أبرز أعلامه؟ وكيف كانت علاقتهم بالسلطة والمجتمع؟

1.تعريف التصوف:

إن تعريف التصوف في الحقيقة ليس بالأمر الهين كونه أمر قلبي ومتعلق بالسلوك، فلا نجد تعريفا عاما جامعا شاملا يتفق عليه الجميع، ولذلك سنحاول إعطاء بعض التعاريف لهذا العلم من قبل أهله وغير أهله حتى نعطي ولو فكرة عامة عنه.

فالجنيد البغدادي (ت 297هـ/881م) وهو من أقطاب الصوفية الكبار [1] يعرفه بقوله : **"التصوف هو أن تكون مع الله بلا علاقة"** ، أما تلميذه **الروذ باري** فقد أجاب على سؤال من هو الصوفي؟ بقوله: **"الصوفي من لبس الصوف على الصفا ، وأطعم نفسه طعام الجفا ، ونبذ الدنيا وراء القفا، وسلك سبيل المصطفى"**[2].

ويعرفه **أحمد بن محمد بن عجيبة** في كتابه التشوف إلى حقائق التصوف بقوله : **" علم التصوف سيد العلوم ورئيسها ولباب الشريعة وأساسها، وكيف لا وهو تفسير لمقام الإحسان...، وهو علم يُعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك، وتصفية البواطن من الرذائل وتحليتها بأنواع الفضائل"**[3]. كما عرّف قاضي الجماعة بغرناطة **أبو البركات بن الحاج البلفيقي** المتوفى سنة 771هـ

(1)عبد الحكيم عبد الغني قاسم، المذاهب الصوفية وأقطابها، مكتبة مديولي، 1999، ص 24.

(2) عبد المنعم حنفي، معجم المصطلحات الصوفية، ط 1، دار المسيرة، بيروت، 1980، ص 157، عبد الرزاق قسوم، عبد الرحمان الثعالبي والتصوف، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978، ص ص 5351 .

(3) ابن عجيبة، التشوف إلى حقائق التصوف، نشر محمد بن أحمد بن العاشمي التلمساني، ط 1، مطبعة الاعتدال، دمشق، 1937، ص 4.

المجلد : 12/ العدد : 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

الصوفي بقوله: "**الصوفي عبارة عن رجل عدل تقي صالح زاهد، غير منتسب لسبب من الأسباب، ولا مُخل بأدب من الآداب... نظره إلى الخلق بالرحمة، ونظره إلى نفسه بالحذر والتهمة**"[4]،

ويقول المتصوف **أبو العباس زروق الفاسي** أبياتا شعرية عن علم التصوف مطلعها:

علم التصوف نور يستضاء به فاجتهد لتدركه ان كنت يقضانا
والزم قواعده إن كنت قاصده فاعمل بحاصلها فالرشد قد بانا[5]

أما **عبد الرحمان بن خلدون** فيعرف التصوف بقوله:" **هو العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا، وكان هذا عاما عند الصحابة والسلف فلما فشا الاقبال على الدنيا...اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية، ثم صار علما بعدما دونت فيه كتب كرسالة القشيري وكتاب الإحياء لأبي حامد الغزالي**"[6].

وإن كنا نجد اختلافا في التعريف الاصطلاحي فالأمر نفسه يقال عن الاشتقاق اللغوي للتصوف، فهناك من أرجعه إلى الصوف، فالمتصوف عندهم من تكلّف في لبس الصوف، وهناك من أرجعه نسبة إلى الصف الأول في الصلاة، ومنهم من قال أنهم سموا بالصوفية لأنهم أهل الصُّفة [7]، بينما قال آخرون بأنه مشتق من الصفاء [8]، وهو الصفاء الذي يغمر قلوب الزهاد، وقد استدلوا في ذلك بقول الصوفي أبو الفتح البستي حيث يقول:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا ظنوه مشتقا من الصوف
ولست أنحل هذا الإسم غير فتى صافي فصوفي حتى لُقب الصوفي[9]

(4) المقري، نفح الطيب، المصدر السابق،ج7، ص ص 2221.
(5) أبو العباس زروق، قواعد الطريقة بين الجمع بين الشريعة والحقيقة، مخوطة بجامعة الرياض، قسم المخطوطات، رقم 1591 .
(6) ابن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص ص 517،518.
(7) صفة المسجد النبوي وهي الزاوية التي في مؤخرة المسجد النبوي بالمدينة.
(8) بوحسون عبد القادر، الاندلس على عهد بني الأحمر، دراسة في التاريخ السياسي والثقافي، النشر الجامعي الجديد، تلمسان، 2017، ص ص 148، 150,
(9) عبد الحكيم عبد الغني قاسم، المذاهب الصوفية ومدارسها، ط1، مكتبة مديولي، القاهرة، 1999، ص 22 .

المجلد : 12/ العدد : 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

وأما أهل الشام فقد أطلقوا على المتصوفة اسم الفقراء استنادا إلى قول الله عز وجل:" **يا أيها الذين امنوا أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد** "[10] ، وقول النبي عليه الصلاة والسلام:" **يدخل فقراء أمتي الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام**"[11].

وعموما فقد قيل عن التصوف الكثير قديما وحديثا، سواء بالإيجاب أو بالسلب، وهناك من جعله صنفين: صنف يستمد أصالته من الإسلام، بحيث لا ينقطع صاحبه عن الحياة العملية، وصنف ينقطع صاحبه عن الحياة العملية[12].

ومهما يكن فقد عرف التصوف انتشارا واسعا ببلاد المغرب الإسلامي عموما والأندلس خصوصا، لاسيما في عهد الموحدين، وهو العهد الذي برز فيه عدد من المتصوفة المشهورين في مشارق الأرض ومغاربها كالقطب الغوث أبي مدين شعيب الإشبيلي الأندلسي المتوفى سنة(594هـ/1198م) و دفين منطقة العُباد بتلمسان [13]، والشيخ العارف بالله محي الدين بن عربي(560 . 640هـ/1065 . 1242م)([14]).

أما في عهد مملكة غرناطة بالأندلس فقد زاد الإقبال على التصوف ورجاله، وربما ساهمت الأوضاع السياسية في ذلك، فبعدما تدهورت أحوال البلاد بعد أن استولى النصارى على أغلب المدن كقرطبة ، اشبيلية، بلنسية وغيرها وجد الناس في التصوف تعزية وسلوة عن الحياة المحيطة بهم، وكأنما صار التصوف بمثابة الملجأ للهروب من الواقع المرير وجو الفتن والحروب([15])، وربما لكون أغلب المتصوفة ثاروا ضد الأوضاع ودعوا الناس للجهاد ضد النصارى قد زاد في حب العامة لهم عكس بعض الحكام المتخاذلين مع النصارى.

([10]) سورة فاطر الآية 15

([11]) عبد الحكيم عبد الغني قاسم، المرجع السابق، ص 23.

([12]) عبد الرزاق قسوم، المرجع السابق، ص 55، كمال السيد أبو مصطفى، محاضرات في تاريخ المغرب والأندلس، مركز الإسكندري للكتاب، 2006، ص 107

([13]) ابن الزيات التادلي، التشوف إلى رجال التصوف واخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد توفيق، ط 1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1997، ص 319، الغبريني، المصدر السابق، ص ص 61.60، ابن عبد الملك الأنصاري، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق إحسان عباس، نشر وتوزيع دار الثقافة، بيروت، (دت)، ص ص 130.129 ، عبد القادر بوحسون، الأندلس على عهد بني الأحمر، دراسة في التاريخ السياسي والثقافي،النشر الجامعي الجديد، تلمسان، 2017، ص ص 148 . 149.

([14]) المقري، نفح الطيب، المصدر السابق، ج 2، ص 316.310، الغبريني، المصدر السابق، ص 160، ابن الملقن، طبقات الأولياء، ط 1، تحقيق نور الدين شيبة، مطبعة دار التأليف، القاهرة، 1973، ص470 .

([15])الطوخي، المرجع السابق، ص 344، عبد الرزاق قسوم، المرجع السابق، ص ص 20.19.

المجلد : 12/ العدد : 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

وقد زاد هذا من الاعتقاد في أهل التصوف إلى درجة وصلت إلى التقديس في عهد بني الأحمر من قبل العامة وحتى الخاصة، وفي حياتهم وبعد مماتهم، فكانت أضرحتهم مزارات يطلب عندها قضاء الحاجات([16]).

ومهما قيل عن تلك التصرفات لم يكن أولئك المتصوفة أن يصلوا إلى ما وصلوا إليه من محبة الناس لهم في الأندلس وتقديرهم لولا دورهم الكبير في مختلف نواحي الحياة، سواء دينيا ثقافيا و اجتماعيا بدعوتهم للجهاد ضد النصارى ودورهم في مجال التربية والتعليم بالإضافة إلى المساهمة في أعمال البر والخير، هذا فضلا عن زهدهم وورعهم وتقواهم، وممن كانت تلك لهم المحبة في قلوب الناس خلال الفترة المدروسة نذكر:

1. أبو عبد الله الشاطبي(585 . 672هـ): هو محمد بن سليمان المعافري الشاطبي، الملقب بشيخ الصالحين، كان يجمع بين العلم والعمل والورع والزهد، وله العديد من المصنفات في علوم شتى كالتفسير والحديث والتصوف، منها: كتاب الحرفة في لباس الخرقة، المنهج المفيد فيما يلزم الشيخ والمريد، النبذ الجلية في ألفاظ اصطلح عليها الصوفية، وغيرها([17]).

2. ابن سبعين المرسي(614 . 969هـ/1218 . 1270م): هو أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر المعروف بابن سبعين المرسي، والملقب بقطب الدين، كان صوفيا شهيرا وفيلسوفا معروفا بالمغرب كما بالمشرق، له طريقة في التصوف تعرف بالطريقة السبعينية ومذهب يعرف بمذهب الوحدة المطلقة، توفي بمكة المكرمة تاركا العديد من المصنفات أغلبها في التصوف منها: كتاب بدأ العارف، كتاب السفر، الكد، الإحاطة، الدرج، بالإضافة إلى مجموعة من الرسائل في المواعظ والأذكار والوصايا([18]).

3. ابن ذي النون الأنصاري(ولد 618هـ): هو أبو عبد الله بن علي بن ذي النون الأنصاري المالقي، الصوفي والزاهد المعروف وصاحب المؤلفات العديدة في هذا المجال نذكر منها: أزهار الخميلة في الآثار الجميلة، استطلاع البشير، محض اليقين، روض المتقين([19]).

([16]) المقري، نفح الطيب، المصدر السابق، ج 9، ص 130، أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج 3، المرجع السابق، ص 69، الطوخي، المرجع السابق، ص 344، عبد القادر بوحسون، المرجع السابق، ص 150.

([17]) المقري، نفح الطيب، المصدر السابق، ج2، ص 289.

([18]) ابن الملقن، المصدر السابق، ص 442، الغبريني، المصدر السابق، ص 209، التنبكتي، المصدر السابق، ص 184، الذهبي، المصدر السابق، ج17، ص 126، ابن كثير، البداية والنهاية،ج 14، ط6، مكتبة المعاريف، بيروت، 1985، ص 27، المقري، المصدر نفسه، ج 2، ص334، عبد القادر بوحسون، المرجع السابق، ص 152.

([19]) المقري، نفح الطيب، المصدر السابق، ج2، ص 214.

المجلد : 12/ العدد : 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

4. أبو الحسن الشُشتري(توفي 668هـ/1269م): أبو الحسن علي النميري الششتري، أحد تلامذة ابن سبعين السابق الذكر، ولعلمه ومكانته وُصف بعروس الفقهاء وإمام المتجردين وبركة لابسي الخرقة، توفي بالشام بمكان يقال له الطينة، وترك مؤلفات عديدة منها: المقاليد الوجودية في أسرار الصوفية، الرسالة العلمية، المراتب الإيمانية والإسلامية والإحسانية([20]).

5. أبو العباس المرسي(توفي 686هـ): يُعد من كبار المتصوفة، صحب القطب الشيخ أبي الحسن الشاذلي حتى قيل أنه ورث الشاذلي تصوفا، كانت له طريقة بديعة في تفسير القرآن الكريم، كما ترك أقوالا كثيرة حول التصوف وأهله منها قوله:" العارف لا دنيا له لأن دنياه لآخرته وآخرته لربه" وقوله:"الزاهد غريب في الدنيا لأن آخرته وطنه"([21]).

6. ابن الحاج البلفيقي(توفي 771هـ/1369م): هو أبو البركات محمد بن محمد بن ابراهيم المعروف بابن الحاج وبالبلفيقي، صوفي معروف وزاهد مشهور، جاب أقطار المغرب الإسلامي وعاد إلى الأندلس وتولى بها قضاء مالقة ثم ألمرية، وترك الكثير من المصنفات منها: الإفصاح فيمن عرف بالأندلس بالصلاح، ديوان شعر سمي بالعذب والأجاج من كلام ابي البركات بن الحاج، ومن أقواله يخاطب نفسه:

يأبى شجون حديثي الإفصاح إذ لا تقوم بشرحه الألواح
قالت صفية إذا مررت بحيَها أفلا تنزل ساعة ترتـــاح
فأجبتها لولا الرقيب لكان ما تبتغي له بعد الغـدو رواح
قالت وهل في الحي حيَ غيره فاسمح فديتك فالسماح رباح
فأجبتها إن الرقيب هو الذي وردت مناهل فيضه الأرواح([22])

7. ابن عباد الرندي(733 . 792هـ/1332 . 1390م): من كبار الصوفية بالأندلس اشتهر بمؤلفاته في هذا المجال سيما كتاب التنبيه، وهو كتاب وضعه على حكم الصوفي والزاهد الكبير ابن عطاء الله السكندري (المتوفى سنة 709هـ/1309م)، وكذلك اشتهر برسائله الصوفية الكثيرة، والتي قيل عنها أنه لا مثيل لها في التراث الصوفي([23]).

([20]) المقري، نفح الطيب، ج 2، ص ص 326.325، الغبريني، المصدر السابق، ص 210، التنبكتي، المصدر السابق، ص 202، محمد بن مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي، بيروت، 1949، ص 196.

([21]) المقري، المصدر السابق، ص ص 332330، عبد القادر بوحسون، المرجع السابق، ص 153.

([22]) ابن الخطيب، الإحاطة، المصدر السابق، ج 2، ص ص 111.102، المقري، نفح الطيب، المصدر السابق، ج 2، ص ص 325، 326، المقري، المصدر نفسه، ج7، ص 3021.

([23]) ابن عباد ، المصدر السابق، ص 7، التنبكتي، المصدر السابق، ص 279.

المجلد : 12/ العدد : 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

خاتمة:

ومن خلال ما سبق يتضح لنا أن التصوف بالأندلس خلال عصر بني الأحمر(مملكة غرناطة) قد بلغ شأنا كبيرا، وما العدد الكبير لأعلام الصوفية ممن كانت لهم شهرة كبيرة سواء بالأندلس أو خارجها إلا دليل على تلك المكانة، كما كانت للأوضاع السياسية دورا في ذلك حيث وجد الناس في التصوف الملاذ للهروب من الواقع السياسي والعسكري المرير، كما استغل الحكام ذلك من أجل رصد الصفوف والحفاظ على الوحدة بين المجتمع والسلطة الحاكمة من أجل مجابهة الخطر النصراني الهادف إلى إسقاط الأندلس وطرد المسلمين منها نهائيا.

وظل أعلام التصوف يقومون بدورهم تجاه مجتمعهم ودولتهم سواء في التعليم والفتيا والقضاء والخطابة أو من خلال المساهمة في الدفاع عن مدنهم وقراهم والمشاركة في توحيد الأمة لمواجهة الخطر الخارجي، وما الأعلام الذين ذكرناهم إلا فئة قليلة من المتصوفة ممن كانت لهم شهرة كبيرة بالأندلس وخارجها، و تركوا بصماتهم الواضحة في مختلف الأصعدة.